قراءة في كتاب

"مذكرات محام فلسطيني: حنّا ديب نقارةً محامي الأرض والشعب"

بلال محمد شلش*

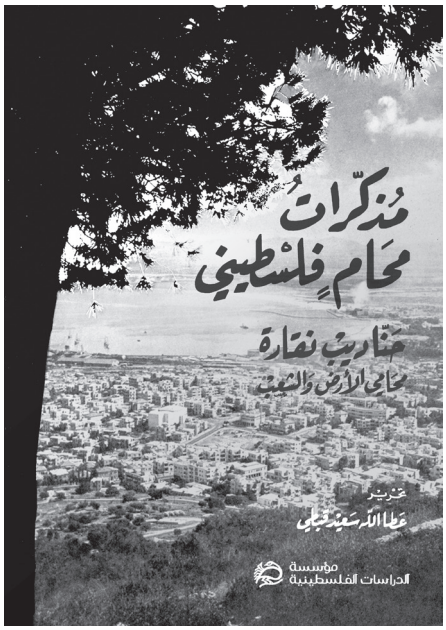

أعادت حديثاً مؤسسة الدراسات الفلسطينية إصدار مذكرات المحامي حنّا نقارة تحت عنوان «**مذكرات محام فلسطيني حنّا ديب نقارة محامي الأرض والشعب**»، في طبعة جديدة تقع في ٣٨٦ صفحة، من تحرير عطا الله قبطي، وقد جاء الكتاب في ثلاثة أقسام: أولها، متن المذكرات، ويغطي مذكرات نقارة حتى ٢ تشرين الثاني ١٩٤٨؛ والثاني، «خطابات ومواقف»؛ والثالث، «في تكريم محامي الأرض»؛ ويختتم الكتاب بفهرس تفصيلي.

إن هذا النص، كغيره من نصوص المذكرات والسير الذاتية واليومية، التي تشكل اليوم مصدراً أساسياً في الكثير من البحوث التاريخية، ذو أهمية خاصة في حالة التأريخ لفلسطين، فالحرب المفتوحة مع الاحتلال الصهيوني أتت على الكثير من تراث فلسطين الوثائقي، ولم يبقَ للمؤرخ المهتم في التاريخ المعاصر لفلسطين إلاّ شتات من الوثائق الفلسطينية، ومئات الآلاف من الوثائق البريطانية والصهيونية المكتوبة لتلبّي أغراضاً استعمارية، فمن هنا تظهر أهمية هذا النوع من المصادر، إذ أنّه غالباً ما يساهم في إعادة تقويم التاريخ المستخرج من الوثائق، ويضفي الحياة على الوقائع التاريخية في أسلوب شيّق وجذاب.

يبدأ نقارة، في القسم الأول الخاص بمتن المذكرات، بفصل يتحدث عن «العائلة»، فيعرض لجذورها الدمشقية، ولصعود جده الاقتصادي، والذي انحدر لاحقاً بمقتل ولده البكر ناصيف، إثر انفجار بارود معد للبيع في دكانه، فكان الحادث سبباً في مغادرة الجد لعكا متجهاً إلى قرية الرامة، التي كانت على موعد مع ولادة حنّا في ١٨ كانون الثاني ١٩١٢. ويتخلل الفصل حديثٌ عن تفاصيل الحياة في القرية؛ ووضع العائلة بعد وفاة الجد؛ وأثر الحرب العالمية الأولى على حياتها؛ ودراسة حنّا في مدرسة الجمعية الأرثوذكسية الروسية، قبل أن ينتقل وعائلته لحيفا عام ١٩١٩، ليدرس في عدد من مدارس المدينة؛ إلى أن يستقر به المطاف في مدرسة القسيس خضر البروتستانتية.

ينتقل نقارة في الفصل الثاني للحديث عن حياته الدراسية، ويبدأ بتفاصيل حياته في القسم الداخلي في مدرسة المطران في القدس، ويشكل هذا الفصل مادة غنية للباحث عن أثر «المدارس الاستعمارية» ودورها في تشكيل نخب مشوّهة، يقول نقارة:

> «كان الجوّ في المدرسة إنكليزياً تبشيرياً. فالتاريخ هو تاريخ بريطانيا والإنكليز والصليبين. والتوراة والإنجيل يحتلان مكاناً بارزاً في الدروس. واللغة الرئيسية، بل الوحيدة، هي الإنكليزية. وتطبق مفاهيم الإنكليز وتقاليدهم في مدارسهم في المدرسة. ويجبر الطلاب على التكلم بالإنكليزية فيما بينهم وبين المعلمين، ويعاقبون على استعمال العربية».

ويتطرق نقارة في حديثه عن المدرسة إلى بعض الحوادث، كمنع الإدارة طلابها من الاشتراك في تظاهرات ضد زيارة بلفور للقدس، حين جاء ليفتتح الجامعة العبرية، ويتطرق إلى حادثة مع أستاذه شكري حرامي، كانت السبب في تخلّيه عن المستقبل الوظيفي المضمون، لتميز طلاب المدرسة بالنسبة إلى الجهاز الإداري البريطاني، إلى مستقبل مجهول، بدأ خوض غماره بالالتحاق في الجامعة الوطنية في عاليه، بعد أن أعجب بجوها الحرّ، ومجتمعها العربي.

---

* معيد في دائرة التاريخ والآثار بجامعة بيرزيت.

يسهب نقارة في الحديث عن الجامعة وأعضاء هيئتها التدريسية وتفاصيل حياته آنذاك، مبرزاً الحديث عن أستاذ اللغة العربية مارون عبود، الذي تكنّى بأبي محمد، مناهضاً للتعصب والتفرقة الدينية، وكان هذا الأستاذ سبباً في تقوية نقارة للغته العربية. يصف نقارة أجواء الجامعة:

«كان طلاب الجامعة ينتمون إلى معظم الأقطار العربية، فبينهم الأردني والفلسطيني والسوري وطبعاً اللبناني، تجمعنا العروبة وتوحدنا المشاعر الوطنية».[1]

يعيش نقارة في عاليه قصة حبه الأولى، فيعجب بفتاة إعجاباً سريع الانقضاء، اعتبره حباً أفلاطونياً في عهد المراهقة، هزّ فيه الأعماق. ويظهر نقارة تردده في اختيار حقل دراسته بعد تخرجه من الجامعة الوطنية، ليحسم الأمر في النهاية لدراسة الهندسة في الجامعة الأمريكية في بيروت، بسبب تفوقه في الرياضيات، متجاوزاً نصيحة أستاذه عبود، الذي نصحه بدراسة الحقوق. يدخل نقارة الجامعة الأمريكية في العام الدراسي ١٩٢٨-١٩٢٩، ليصطدم بنيكلز المشهور بغطرسته وعنجهيته، والذي تساءل عن مشاركته في رفع مذكرة احتجاج إلى السلطات العراقية، إثر طردها عدداً من الطلاب، محذّراً إياه من ممارسة أي نشاط سياسي. وينتقل السرد ليتحدث عن أجواء الجامعة، وانتشار أشعار إبراهيم طوقان ووجيه بادوني وحافظ جميل، وينبّه نقارة الباحثين إلى ضرورة دراسة حياة إبراهيم الجامعية وأثرها في شعره. ويختم بالحديث عن فشله في الدروس التطبيقية، والندم على عدم اتباع نصيحة الأستاذ عبود، وأثر هذا الفشل على والده، الذي سبق له أن غادر حيفا إلى عكا لكونها أم الفقير، وطلبه من نقارة البحث عن وظيفة.

يسرد نقارة قصة إصراره وقراره الدخول في مدرسة الحقوق بالقدس، الأمر الذي اصطدم بقرار إدارة المدرسة عدم فتح صف أول لذلك العام لعدم وجود عدد كافٍ من الطلبة، أو بسبب عدم رغبة الحكومة بتكاثر عدد المحامين العرب. لكن نقارة يتابع مسيرة الإصرار، فيسافر إلى دمشق سنة ١٩٣٠ بعد موافقة والده، ويتيسر له أمر التسجيل في المعهد والتقدم لامتحانات الدخول، يقول:

«كان المسؤولون في الجامعة السورية يسهلون دخول الفلسطينيين إلى معهد الحقوق، آخذين في الحساب أن فلسطين كانت إلى عهد قريب تشكل سورية الجنوبية».[2]

في دمشق، يبدأ نقارة الدراسة الجادة للتقدم لامتحانات الدخول، يتخللها إعجاب بفتاة حلبية، ولقاء عابر ينتهي باعتذار للانشغال بالدراسة. ويبرز لنقارة موضوع التاريخ الإسلامي كموضوع للامتحان، ولم يكن له نصيب من التدريس في «المدرسة الاستعمارية» أو في المدرسة «الوطنية»، فيقبل عليه «إقبال الظمآن على الماء القراح». ثمّ يبدأ نقارة حياته الدراسية بعد نجاحه في الاختبارات، وينتقل السرد من وصفها إلى وصف الحياة السياسية في دمشق، وأثر الطلاب في النشاط المعارض للاستعمار الفرنسي، ويشير نقارة إلى أن الوضع المادي كان عائقاً على استمتاعه بحياة زاهية في دمشق. يتخلل النص أيضاً حديث عن حياة نقارة في دمشق وعن بعض الحوادث قبل تخرجه عام ١٩٣٣، إلى أن ينتهي بصدمة قرار سلطات الانتداب البريطاني بإلغاء الامتياز، الذي كان ممنوحاً لمعهد الحقوق في دمشق، والاشتراط على طلابه التقدم لامتحان الأجانب، شأنهم شأن الأوروبيين. ينتقل السرد بعد ذلك إلى الحديث عن أجواء الدراسة والتحضير للامتحانات برفقة الصديق عبد الرحمن أبو لبن، النابلسي، الذي يشاركه الدراسة، لكن لا يشاركه فرحة النجاح في الاختبارات لوفاته المفاجئة. ثم ينتقل الكاتب إلى الحديث عن أجواء التدرب للمحاماة في مكتب المحامي وديع البستاني، ويختم الفصل بحديث عن البستاني ونشاطه القانوني والسياسي والمجتمعي.

يواصل نقارة سرد ذكرياته في الفصل الثالث، والذي تطرق إلى نشاطه السياسي والاجتماعي، فيبدأ بالحديث عن إضراب ١٩٣٦، ومشاركته للبستاني في حضور اجتماعات لجنة حيفا القومية، واجتماعات قيادات المدينة، ويتحدث عن أجواء الإضراب، التي أحاطت بزفافه من ابنة عمته ومحبوبته أليس مبدّي بهو في ١٢ تموز ١٩٣٦، ويفرد عدداً من الصفحات للحديث عن حبه لابنة عمته، وتعلقه بها، وقصة زواجه منها.

في أيار ١٩٣٧، ينتقل نقارة إلى العمل شريكاً للمحامي فؤاد عطا الله؛ فيتحدث في هذا الفصل عن نشاطه في بعض الجمعيات والأندية في حيفا، كجمعية إغاثة المسكين الأرثوذكسية، وجمعية النهضة الأرثوذكسية، والنادي الأرثوذكسي العربي؛ ثم يتحدث عن لجنة التحقيق الملكية المعروفة بلجنة بيل وإنهاء الإضراب؛ ويعطي ملخصاً عن نشأة الأحزاب السياسية، وتطورات الأوضاع في فلسطين في مطلع الثلاثينيات؛ لينتقل بعدها إلى الحديث عن بعض الحوادث والأنشطة، التي تلت تجدد الثورة في حزيران ١٩٣٧، واشتدادها في المنطقة الوسطى والجليل، فيصف المحاكمات العسكرية الصورية، والقرار بأن يوفر محامي لكل متهم، وخصوصاً

١ ص٤٠.

٢ ص٥٢.

بعد هرب عددٍ من المحامين الفلسطينيين، إثر تصاعد الأحداث، وبدء موجة الاغتيالات الداخلية. ويشير نقارة إلى اتصالات كانت تحصل بينه وبين القائد أبو درة، وإلى زيارات متعددة قام بها الثوار لمكتبه وبيته، من أجل متابعة عدد من القضايا.

ينتقل نقارة من الحديث عن الثورة إلى الحديث عن نشاطه في النادي الأرثوذكسي العربي في حيفا، ويشير إلى دور النادي في حلّ خلافات الطائفة، وإلى دوره القيادي في تطوير عمل النادي وضم عدد من الشخصيات البارزة كأعضاء مؤازرين، وتحويل النادي من نادٍ طائفي إلى نادٍ وطني، وعضوية عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) به بعد أن قدِم إلى حيفا واستقر فيها، ويتطرق لاهتمام النادي بالعنصر النسائي في المحاضرات، وذلك بناءً على اقتراح أبو سلمى.

ينتقل نقارة للحديث عن فترة الحرب العالمية الثانية، فيتحدث عن انصرافه لتعداد خسائر بريطانيا جواً وبرّاً وبحراً، ويعلّق بأن هذا لم يكن محبةً للنازية أو الفاشية، وإنما لاقتناعه بأن بريطانيا الاستعمارية لا تقوم بحرب من أجل الديمقراطية. يقول في هذا السياق:

> «كنا ننتظر بفارغ الصبر غزو بريطانيا وإبادتها من الوجود، فقد ذقنا الأمرين من السياسة البريطانية».[٣]

ثمّ يواصل الحديث عن مجريات الحرب، فيتحدث عن غزو هتلر للاتحاد السوفيتي في حزيران ١٩٤١، وما أحدثه من انعطافة في تفكيره، ويشير إلى استهزائه بما كان يذيعه عجاج نويهض، وعباس العقاد، وغيرهم لمصلحة بريطانيا. ويتطرق نقارة إلى انحيازه إلى اليسار، ويعتبر أن مدخله لليسار كان بمعايشة قضايا العمال محامياً، ويزداد انحيازه بالتقائه بالقائد الشيوعي فؤاد نصار، الذي اشترى له عدداً من الكتب الماركسية، كانت قد أحضرت من الاتحاد السوفياتي عن طريق إحدى المكتبات. ويؤكد نقارة مساهمة أبو سلمى في انحيازه الكامل لهذا الاتجاه، فصار من مؤيدي عصبة التحرر الوطني، وأصبح من قرّاء جريدة الاتحاد ونشرات العصبة.

ومن انحيازه إلى اليسار إلى نشاطه في مجلة المهماز، التي كان أحد مؤسسيها، فيصف المجلة بأنها رفعت المطالب الوطنية المعروفة: وقف الهجرة الصهيونية؛ ومنع بيع الأراضي؛ وإقامة حكومة فلسطينية مستقلة. وبعد الحديث عن قصة إميل حبيبي سكرتير تحرير المجلة، وطريقه إلى عالم الصحافة والأدب عن طريقها، يتطرق نقارة إلى قصة اثنين من القساميين، الذين عاشرهم في حيفا.

يعود نقارة إلى حديثه عن نشاطه السياسي، فيتحدث عن انضمامه إلى حركة القوميين العرب، ويفصل الحديث عن محاولة الحركة إنشاء حزب الشعب، وفشل المشروع بعد تسريب دستوره لجريدة اللواء لسان الحزب العربي الفلسطيني. ويعيد فشله إلى تدخل البريطانيين. وبفشل الحزب تنتهي علاقته بالحركة. ويتحدث نقارة عن رفضه اقتراح إنشاء جمعية مسيحية لأن: «مجرد تلبية الدعوة فيه مسّ بمشاعر إخواننا المسلمين، فقد دفنّا الطائفية كعنصر سياسي، ولن نعود إلى العشرينيات». ص١١٣.

ينتهي نقارة من هذا الفصل بالحديث عن تفاصيل معركة حيفا، ويسبقه بحديث عن مؤامرة رفض المثول أمام لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين:

> «كانت المؤامرة واضحة كل الوضوح، إذ تلقت دول الجامعة العربية، التي كانت تدور في فلك الاستعمار، التعليمات من بريطانيا بمقاطعة اللجنة، فقررت ذلك، وألزم قرارها الهيئة العربية العليا». ص١٢٧.

ويؤكد إمكانية معارضة العرب للتقسيم عملياً، عن طريق الحديث للجنة عن إمكانية التعايش العربي اليهودي، ويضرب أمثلة على ذلك بعدد من الحوادث، وبتعاون العمال العرب واليهود في أماكن عملهم وبإضرابهم سنة ١٩٤٦ بقيادة عربية يهودية، وتواصل إضرابهم بإخاء وتعاون مدة طويلة إلى أن حققوا مطالبهم. وبالحديث عن أن بعض الأحزاب داخل الحركة الصهيونية لا تريد تقطيع أوصال البلاد، وأن الحل الأمثل هو في إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية ثنائية القومية مع حقوق متساوية. ويشير نقارة إلى اجتماع مع مندوب الحاج أمين الحسيني، معين ماضي، تلاه اجتماع مع جمال الحسيني تطرق إلى موقف عصبة التحرر من مقاطعة اللجنة. ثم يربط هذا بقرار التقسيم والنكبة، فيقول:

> «مما لا شك فيه أن التقسيم كان نكبة للعرب، فأكثر من ٤٠٠٠٠٠ عربي بقراهم ومدنهم وأراضيهم، سيصبحون أقلية في دولة يهودية، لا يتجاوز عدد اليهود فيها ٤٥٠٠٠٠، وكان هذا تقطيعاً لأوصال فلسطين وغرس دولة غريبة في وسط العالم العربي. لكن هذا كان حصيلة الاستعمار البريطاني وسياسته في فلسطين، وحصيلة الصهيونية، وحصيلة صعود النازية وتدفق الهجرة حتى بلغت نسبة اليهود ما يقارب ثلث السكان، وحصيلة النكبة التي أصابت اليهود في الحرب العالمية الثانية، وأخيراً حصيلة الرجعية العربية التي سارت في ركاب الاستعمار البريطاني وسياسة القيادة العربية الفلسطينية

٣ ص٩٧.

التقليديــة. كل هــذه العوامــل مجتمعــة أدت إلى التقســيم وقيام الدولة اليهودية في القســم الأكبر من فلسطين». ص١٣٦

بعد ذلك يبدأ الحديث عن معركة حيفا وكارثة فلسطين. في نص يسجل الحوادث التي سبقت سقوط المدينة. ويلخص أجواء الرعب التي عاشها سكانها. وأجواء الألم والمصيبة التي حلت بهم إثر تهجيرهم، يقول نقارة في وصفه لحال حيفا:

«كنــت مضطراً [. . .] إلى الســير في الطرق، على الرغــم من تطايــر الرصاص وانفجــارات الألغام والقنابل، وكنت أفكر مئة مرة قبل أن أختار طريقاً أسلكه». ص١٣٧.

في ظل هذه الأجواء، فضّ نقارة شراكته مع فؤاد عطا الله. واقترب الموت منه، حيث وصلته أثار انفجار لغم ضخم نسف عمارة بجوار مكتبه. وقتلت ابنة عمته وأصيب أخوها في هجوم استهدف بيتها، من قبل الهاغاناه. ويضيف نقارة في وصف أجواء المعركة، فيقول:

«كانت القوات الصهيونية تســيطر من موقع حي الهــدار على الأحيــاء العربية في المدينــة التحتا، وتســتطيع أن توجه إليها الضربة فــي أي مكان، ولم يكن لدى العرب أية قوات». ص١٣٩

لكنه بعد كل هذا يفاجئنا بقوله:

«اليوم (ســنة ١٩٨٢)، وبعد ثلاثين عاماً، تعترف قيــادة منظمــة التحريــر وكل مخلص، بــأن أكبر غلطــة ارتكبهــا العــرب فــي تلــك الحقبــة كانت نزوحهــم عــن مدنهم وقراهــم حيثمــا كان البقاء ممكنــاً. وأنا أقــول إن من أكبر حماقــات الرجعية العربيــة، إن لــم نقل خياناتها، أنهــا فتحت أبواب الــدول المجــاورة لاســتقبال هــذا الســيل مــن النازحيــن، ومكنــت الصهيونيــة من تســلم مدن وقــرى كأنهــا معــدّة ببيوتهــا الموثقــة والملآى بالبضائــع والمؤن لاســتقبال المهاجرين اليهود». ص١٤١.

ويضيف في موضع آخر:

«أقول لو بقي العرب في حيفا، ورأى أهالي القرى والمدن التي احتلت بعد احتلال حيفا، أن العرب يعيشون فيها حياة مشتركة عادية، لاقتدت بها مدن صفد وبيسان ويافا وحي القطمون، ولبقي العرب أو قسم كبير منهم في هذه المدن». ص ١٤٩.

فهل يتسق هذا مع تطور الأحداث، وهل كان بإمكان أهل حيفا البقاء. وإن كان ذلك ممكناً لماذا لم يبقَ نقارة؟! وخصوصاً أن الناس اعتقدوا، ونقارة منهم، أنهم سيغادرون مؤقتاً وسيعودون. وهل كان الفكر الصهيوني، الذي كان وراء عملية التطهير العرقي الممنهجة التي شهدتها فلسطين سنة ١٩٤٨، يقبل بالحياة المشتركة العادية؟!

يسجل نقارة وبنصّ فيه الكثير من الوجع، لحظة مغادرته وعائلته حيفا متجهاً إلى عكا أواسط نيسان، على أمل العودة لإنجاز قضاياه المتبقية أوائل أيار:

«ســافرنا برفقة صديقنا في ســيارة الشركة، في طريــق ملتوية غيــر عارفين أن هذا ســيكون آخر العهــد ببيتنــا ومحتوياتــه، وكان لــكل قطعة من أثاثه ذكرى محببة، كذلــك لكل كتاب في مكتبتي الكبيرة، ولكل صــورة. وكنت تركت مكتبي بأثاثه وكتبه وشــهاداتي من الجامعة الوطنية في عاليه وشــهادة «الفريشــمان» مــن الجامعــة الأميركية وشــهادة معهــد الحقــوق فــي دمشــق، وصورة لأساتذة المعهد وخريجيه، وصورة كبيرة لي تذكر بآخــر عهد الدراســة في دمشــق. ولطالما تعذبت وتألمــت وأنــا أتذكر مع زوجتي كل هذه الأشــياء، التــي أصبحت جــزءاً منــا وقســماً مــن حياتنا». ص١٤٣.

لم يكن الخروج من عكا الخروج الأخير، فبعد محاولة فاشلة للعودة إلى حيفا، وإثر الحديث عن حشد الجيوش العربية على الحدود في ١٥ أيار، وعن تطورات الأحداث والاجتماعات في عكا، غادر نقارة وأهله عكا باتجاه بيروت، يقول نقارة معللاً ذلك:

«وفي هذه الأوضاع لا يمكن تحمل مسؤولية البقاء في عكا بالذات، فلو كنا في بلد آخر لهان الاختيار. لذلــك وبعــد تــردد قررنــا النــزوح إلــى لبنان». ص١٥١.

في بيروت يسجل نقارة مسيرته وزملاءه للبحث عن حلّ. والعمل على مساعدة اللاجئين في لبنان. وحملة السلطات اللبنانية على نشطاء اليسار واعتقال إميل توما. ويؤكد نقارة أن اعتقال توما وإمكان وقوع اعتقالات أخرى، وشنّ معركة العودة، وإقامة الدولة العربية، لعبت برأسه واستحوذت على تفكيره، فكان القرار بالعودة إلى أرض

الوطن، والذي سجل تفاصيله في الفصل الرابع والأخير.

يبدأ الفصل الأخير بتفصيل مغادرة مطار بيروت في ١٠ آب ١٩٤٨ إلى حيفا، عبر طائرة قبرصية تنقل المسافرين إلى مطار شركة بترول العراق في حيفا. يسجل نقارة تفاصيل الرحلة حتى الوصول إلى مطار حيفا، حيث كان التحقيق العسكري في انتظارهم بعد نقلهم من المطار عبر طرق حيفا الفارغة، التي يسهب نقارة في وصفها راثياً أطلالها، معلقاً على «تهجير» أهلها، وكأن الأمر كان بِيدهم؟!

«بـدأت الأحياء مقفـرة كأن لا حياة فيها، وتعجبنا لهـذا الدهر، كيـف أخنى علـى أهاليهـا فغادروا وطنهم تاركيـن بيوتهم وحوانيتهـم بما فيها من أمتعة وبضائع ومواد وذكريات توحي بأن المكان خـراب يباب ينعق فيه البوم والغربان [. . .] هكذا هجر أهالـي حيفا مدينتهم الجميلـة ليهيموا على وجوههم غرباء مشـردين تائهيـن جائعين عراة، هجروها لأنه هكذا شـاء أيضـاً طغمة مجرمة من بني قومهـم انجـروا وراء الاسـتعمار البريطاني ينفـذون رغائبه ويحافظون على مصالحه سـواء عـن وعـي أو عـن جهـل. وعمل هـذا الاسـتعمار على توسيع شـقة الخلاف بين الشـعبين العربي واليهودي وأبى أن يغـادر البلد إلا بعد أن غادرها العـرب لخوفـه مـن قيـام أي تفاهم بيـن هذين الشعبين». ص١٦٧.

كانت أسئلة التحقيق في حيفا تدور عن أسباب العودة. وفيها صورة جلية عن رؤية المستعمر الصهيوني لأهل فلسطين. فحين سئل نقارة لماذا تعود؟ قال أعود إلى وطني وبلدي، فسأله المحقق العسكري: أنت تعتقد هذا! فردّ: هذا هو الواقع، فقال المحقق: أنا أعتقد غير هذا.

توالى التحقيق في حيفا، ويسرد نقارة تفاصيله، وتفاصيل حياته اليومية في معتقله. ويتطرق النص إلى جوانب كاشفة لآليات وأسلوب عمل المحتل الجديد. وينبئ عن بنية تحتية أعدت عبر سنين طويلة ظهرت للوجود إثر إعلان الكيان الصهيوني أواسط أيار ١٩٤٨. لم يمضِ وقت طويل فانتقل نقارة وزملاؤه إلى سجن عكا، وأُنزلواَ في مكان خاص يستفيض نقارة في وصف سوئه، ويصف نقارة أحوال المعتقل والمعتقلين.

يتحدث نقارة عن حال سكان عكا، الذين بقوا في المدينة وعن سوء لجنتها وتعاونهم مع المحتل. ويواصل سرد يومياته واجتماعه مع المسؤول عن القسم السياسي في المنطقة، وطلب الأخير كتابة مذكرة يوضح فيها نقارة موقفه السياسي، وتردد نقارة في الأمر لحين ورود بعض نشرات عصبة التحرر، التي حسم بناء عليها أمر المذكرة. ويسرد نقارة تفاصيل مجاعة حصلت في السجن، وعن ضغط أعضاء عصبة التحرر خارج السجن من أجل إطلاق سراحهم.

ضمن حركة ترحيلات في السجن، ينتقل نقارة وزملاؤه إلى سجن حيفا، حيث أبلغوا بصدور أمر من الحاكم العسكري في حيفا يقضي باعتقالهم مدة ثلاثة أشهر، وصدر القرار وفقاً للمادة ١١١ من قانون الدفاع لسنة ١٩٤٥. يصف نقارة معركتهم ضد السجان وقرارهم الإضراب عن الطعام، إثر رفض الاستجابة لطلباتهم وعدم الرد على برقياتهم إلى وزير الأقليات والحاكم العسكري. لكن استجيب لطلبهم، وعين لهم محامياً برر التشدد في قضيتهم، بأنها متصلة بالجيش، والجيش حديث التشكيل.

يقطع الحديث عن تطورات القضية، حديثٌ عن معتقل بريطاني الأصل تقرر ترحيله إلى بلاده، فيسرد نقارة تفاصيل قصته وهروبه من الجندية، ثم يعود ليواصل قصتهم مع سلطات الاحتلال ومفاوضاتهم، ووصول النبأ إليه باحتلال بيته من قبل عائلة يهودية ونهب محتوياته. ويسهب نقارة في سرد يوميات المعاناة إلى أن يتوقف قلمه عن الكتابة عند يوم الثلاثاء ٢ تشرين الأول ١٩٤٨، إذ لم يسعفه الأجل ليكمل مذكراته فانتهى النص، الذي استكمل بحديث مقتضب لابنته عن سير الأحداث والإفراج عن والدها في ١٠ تشرين الأول، وقصة تسلل عائلته إلى فلسطين، ودور والدها اللاحق في الدفاع عن الأرض والإنسان في داخل فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨.

وهنا لا بد من التوقف للحديث عن أهمية تسجيل السير الذاتية مبكراً، حتى لا يكون مصير الذكريات النسيان بموت أصحابها. فمن مذكرات يوسف صايغ، التي لم تكتمل، إلى مذكرات نقارة، إلى مذكرات وسير آخرين، يفقد تراث كان سيغني الساحة البحثية بالكثير من المعلومات والتفاصيل، وينعش ذاكرة الأجيال بسيرة شعبهم مروّية بأقلام أبطالها.

في القسم الثاني والثالث، محاولة لتعويض النقص الحاصل بسبب وفاة نقارة. حيث يسجل القسم الثاني خطابات ومواقف لنقارة اتخذها في أثناء نشاطه في الحزب الشيوعي، الذي انتظم في عضويته سنة ١٩٤٩، ومواقف حول بعض القضايا القانونية المتعلقة بالدفاع عن الأرض والإنسان. وحديث عن صديقه الشاعر أبو سلمى. ويشكّل هذا القسم إضافة وثائقية مهمة للباحثين والمهتمين بالتاريخ، وقضايا العرب في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨، وللباحثين في تاريخ الحزب الشيوعي.

ويسجل القسم الثالث والأخير، مقالات سطرها عدد من رفاق نقارة. تتطرق إلى حوادث ومواقف عاشها أصحابها مع نقارة، وتؤرخ لجوانب أغفلتها المذكرات. ويختم القسم بمقال للدكتور مصطفى كبها بعنوان «الحياة الثقافية في حيفا عشية النكبة، ودور حنا نقارة فيها»، ومقال للدكتور مصطفى العباسي: «حنا نقارة

ودوره في الدفاع عن المعتقلين من أبناء قرية الجش». وقصيدة للشاعر حنا أبو حنا ألقيت في حفل تأبيني لنقارة.

ملاحظات على هامش النص:

كُتب النص بلغة سلسلة جميلة. وفيه الكثير من المعلومات والتفاصيل المهمة للمؤرخ لفلسطين في شتى المجالات سياسية كانت أو ثقافية أو فكرية أو اجتماعية. ويظهر أن صاحب النص أراد في تدوينه للكثير من الجزئيات والتفاصيل أن يعين الباحثين والمؤرخين في دراساتهم، فكتب بعد وصفه الدقيق لمدرسة المطران قائلاً: «أدون هذه المعلومات لأنها أصبحت من التاريخ وقد تستعمل لغير مقاصد السيرة الذاتية».

لكن النص كغيره من نصوص السير الذاتية والمذكرات لم يخلُ من إشكاليات: أبرزها انعكاس فكر الكاتب السياسي وموقفه على تفسيره وقراءته للأحداث، ويبرز هذا في سرده لتفاصيل تعامل العرب مع لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (UNSCOP)، وفي تفاصيل معركة حيفا وكارثة فلسطين؛ ومن الإشكاليات التي تركت أثرها في النص فشل الذاكرة في استرجاع الماضي كما كان، أو تعمد النسيان، فيختفي التأريخ للكثير من الحوادث، لكنه يظهر بدقة في أُخرى، وتختفي أسماء الشخوص وأبطال الحوادث في بعض الأحيان وتظهر في أخرى، فمثلاً تختفي عند سرد تفاصيل الثورة في مرحلتها الثانية أسماء الثوار وتفاصيل حكاياتهم، وعند الحديث عن القرار بأن لا يدخل متهم محاكمة إلا بمحامٍ تختفي أسماء من اتخذ القرار خلف صيغة الجمع.

ملاحظات على هامش التحرير:

لم يحدد المحرر دوره في النص. ويبدو أنه اقتصر على إيراد بعض الهوامش التوضيحية، والترجمة لعدد من الشخصيات الوارد أسماؤها في النص، لكنه لم يضع معياراً لترجمتها، وبمضمون مادة الترجمة، فنجده يتجاوز الترجمة للكثير من الأسماء المهمة. وتقتصر ترجمته أحياناً على معلومات هامشية. فمثلاً نجده يقتصر في ترجمته لظاهر العمر في ص١٣، هامش رقم ٢، على اسمه وسنة مقتله وأصل عائلته، ولا يشير إلى أي من المعلومات التي كانت مصدر أهميته.

ولا يتدخل المحرر في مواضع كان تدخله فيها لازماً: كضبط بعض التواريخ، التي لم تستطع ذاكرة نقارة ضبطها؛ أو بعض الأمور والأسماء المبهمة. فمثلاً نجد نقارة يتحدث عن انتخابات برلمانية سورية عاش أجواءها وسرد تفاصيلها في ص٥٦-٥٩، لكنه لم يستطع ضبط تاريخها، فكان لزاماً على المحرر الإشارة إلى أنها عقدت في كانون الثاني ١٩٣٢، وأعيدت في نيسان ١٩٣٢. ويشير نقارة في ص١٠٢ إلى أن أبو سلمى ألقى قصيدته المشهورة في مؤتمر العمال العرب سنة ١٩٤٥، فهل كانت هذه القصيدة هي ذات القصيدة التي أشار إليها نقارة في ص٩٨ «انشر على لهب القصيد شكوى العبيد إلى العبيد»؟. ومن الأسماء المبهمة حديث نقارة عن اتصال أبو صخر به من أجل إقامة مجلة المهماز في ص١٠٣، فمن هو أبو صخر؟

في الختام لا بد من شكر المؤسسة على الإخراج المميز للكتاب، لكن ما المانع من أن يلحق في النص عدد من الصور تؤرخ لحياة نقارة. وخصوصاً أن المؤسسة عوّدت قرّاءها على الاهتمام بنشر الصور في نصوصها.